

ملف «أدب الإمارات» في «الأداب»*

سميل ادريس



استغرق ملف «أدب الإمارات العربية المتحدة» أقل من نصف صفحات العدد الأخير من مجلة الأداب. وقد كنا نتمنى ونتوقع أن يستغرق العدد بأكمله، لأننا نعتقد أن الأدباء الإماراتيين، شعراء وباحثين وقصاصين، أكثر عدداً وأوفر إنتاجاً مما تضمنه هذا الملف. وكما ذكرنا في التقديم للعدد، أسفنا لعدم تمكن أدباء أكثر من إرسال موادهم، واعتذرنا عن عدم نشر بعض المواد الأخرى لأنها منشورة في كتب سابقة، أو لأنها وصلت متأخرة. ولا بد هنا من أن نكرّر الشكر للصدوق الأستاذ عبد الإله عبد القادر الذي بذل جهداً كبيراً في تجميع المادة من الأدباء، وهي مادة لا ضئيل من الاعتراف بأنها ذات مستويات متفاوتة، وبعضها لا يُرضي الذائقة الفنية.

ولكن حرصنا على استكمال مهمتنا القومية في تعريف القراء العرب بمختلف جوانب الإبداع في مختلف الأقطار العربية، هو الذي حدا بنا إلى تخصيص الإمارات العربية بهذا الملف الأدبي، على ما يشكو منه من نقص وفجوات لا بد من تداركها في مقبلات الأيام... وإذ نشكر كذلك مبادرة «ندوة الثقافة والعلوم» للاحتفال بهذا العدد الخاص من «الأداب» نوجه التحية إلى جميع المؤسسات الثقافية في الإمارات، كالمجمع الثقافي والدائرة الثقافية ومؤسسة جمعة الماجد، ومؤسسة سلطان العويس وسواها، وكلها يدل على أن هذا البلد يقوم بدور هام وبيئيل مثقفوه جهوداً محمودة لإبراز هذا الدور في الحياة الثقافية العربية. ونحن من الذين يعتقدون بأن الإمارات العربية المتحدة مرصودة لإسهام فعال في تنشيط الإبداع الثقافي، وهي تملك من الوسائل المادية والمعنوية ما يجعلها جديرة بالمشاركة في قيادة الثقافة العربية، ولاسيما على الصعيد القومي.

حين تناولت عدد الأداب الأخير لأحدثت عن الأدب الإماراتي الذي يضمه، تذكرت باباً استحدثناه في المجلة لدى صدورنا استقباله القراء العرب استقبالاً إيجابياً، هو باب «قرات العدد الماضي من الأداب». وكنا نعهد في كتابة هذا الباب إلى نخبة من الدارسين والنقاد والشعراء ليقوموا مادته ويحاولوا أن يدلوا على مواضع الإجابة ومواضع الإخلال في إنتاج الكتاب، حريصين على الصراحة وعدم المجاملة. ولم يلبث هذا الباب أن أصبح موضوع اهتمام وتقدير لدى معظم كتّاب الأداب، يُعجبهم في معظم الأحيان ويستأوون منه بعض الأحيان لجراته... وكنت أحياناً أتولى كتابته وأنا مقتنع بأن ما ينطوي عليه من أحكام هو أقرب إلى الاجتهادات الخاصة، التي تقبل المناقشة وتحتمل المناقضة... ونحن نعزو نجاح هذا الباب إلى أننا كنا نفسح المجال واسعاً لمناقشة أحكام النقاد والدارسين، وكنا بذلك نتبع الفرصة لمزيد من الحركة والنشاط

* - كلمة القيت في ندوة «الثقافة والعلوم» في دبي، آذار ١٩٩٨.

الثقافي لصالح الفكر واختلاف الرأي. على أن مظهر الديمقراطية والانفتاح هذا لم يكن دائماً هو السائد في سياسة رئيس التحرير الذي كتته حتى بداية عام ١٩٩٢. فانا مثلاً لم أكن من المحمسين لنشر ما يُسمى «قصيدة نثر»، لاعتقادي بأن هذا اللون مقبوس كلياً من الأدب الأجنبي، ولاسيما الفرنسي، وأنه لا يتخلل في تطور القصيدة العربية ولا يضيف إليها، بل هو يفقد عناصر أساسياً من عناصر تكوينها، هو عنصر الإيقاع، فضلاً عن أنه يشرع القوضى في وجه النظام الذي تقوم عليه القصيدة العربية. ولا أنكر أنني نشرت في الأداب إلا نصاً واحداً للمرحوم جبرا إبراهيم جبرا يمكن اعتباره قصيدة نثر. ولكنني في الحقيقة، ولأعترف بذلك، إنما نشرته لأنه كان يتحدث عن مأساة فلسطين!*

واسمحوا لي أن أروي هنا حادثاً طريفاً يرتبط بهذا الموضوع. فقد تحمست ذات يوم لنشر مجموعة من النصوص تُحسب في شكلها في قصائد النثر. وكانت لإحدى... الكاتبات... حين سألتني سكرتيرة التحرير ومستشارة دار الأداب، وهي بالمناسبة زوجتي ورفيقتي عابدة مطرجي، كيف نشرت هذا الكتاب، أنا المناهض لقصيدة النثر، أجبتُها أن هذه «نصوص جميلة»، كما هو مُتَّبَع على غلافها، وليست «قصائد نثر». قالت عابدة: «ولكنها كلها نصوص، بما في ذلك الشعر العمودي»؛ وحين رأيتي مرتبكاً ولا أجد الجواب، استطرقتُ: «النصوص جميلة أم صاحبة النصوص هي الجميلة؟» أجبت، وأنا شاعرٌ بأنها قبضت عليّ: «الأمران معاً!».

وضحكت، ولكنني ما لبثت أن كفكتُ ضحكتي وأنا أتساءل: اليس من الخطأ أن يتخذ رئيس تحرير أو صاحب دار نشر زوجة سكرتيرة؟! أيها الأصدقاء،

ما دام الحديث عن الشعر، فلنتحدث عن النصوص أو قصائد النثر أو المادة الشعرية التي يضمها ملف الأداب الإماراتي. ولئن أردت أن أقف وقفاً متأنيةً هنا، فأنا أصارحكم بأنني غير راض عن معظم المادة الشعرية في هذا الملف. فقصيدة «هزكت» لمنع سعيد العتيبي من الشعر الخفيف السريع، وهو حديث عن فتاة تتحول عن الراوي إلى سواه، فيبلغ به اليأس أن يعلن موتها وهو الذي أحيا ذكرها في القبيلة، ثم يرثيها ويطلق الشَّعْر بعدها!

ويرى الأستاذ عبد الإله عبد القادر أن العتيبي «يشكل بصوته الشعري تميزاً واضحاً في إدخاله صوراً عصرية جديدة في شعره». ولذلك أخشى أن نعلمه إذا حكمنا على شعره بهذه القصيدة وحدها؛ فنحن بحاجة إلى الأطلاع على المزيد من قصائده.

وقصيدة «الزمن السريالي» لشهاب غانم هي مما يمكن إلحاقه بما يسمى «الشعر الحلمتيشي» الهازل الذي يتحدث عن سريالية

** - تعليق رئيس التحرير: فات صاحب المجلة أنه نشر أيضاً في الماضي قصائد نثرية لحمد الماغوط وغيره، وإن الأداب منذ بداية الستينات نشرت عدداً من قصائد النثر (لطيفة خميس، ومحمد فهمي سند، وغسان الخنيزي، وأحمد كتوعة ووفاء العمراني وغيرهم) فاقصصى التنويه كي لا يقول بعض الخبثاء: «ها قد شهد شاهد من أهله!»

العصر بسخرية وتعجب ويكتفي بإيراد أسماء متناقضة.

أما قصيدة «هذا من أبناء الطير» لإبراهيم محمد إبراهيم فيمكن استنتاجها لأن شاعريتها تقوم على شفافية منبعثة من إيقاع مُهدّد وحذير يتكى على التراث. وقصيدة «في مدح التفاح» لعارف الحاجة من الشعر المدور الجميل المليء بالإيقاع والموسيقى والحافل بالرموز القائمة على المقارنة بين التفاحة والمرأة. وقارئ مقطوعة «ندم» لخالد بدر يخرج متسائلاً عن سبب ندم المتحدث الذي يرثي رحيل الأهل ويقف على بقاياهم ويستمع إلى أصواتهم.

ويؤسفني أن أقول إنني لم أذوق، لأنني لم أفهم، نصي صالحة غابش وميسون صقر القاسمي، بالرغم من أنني قرأتها أكثر من مرة. أكون من شروط ما يسمى «قصيدة نثر» الإبهام الشديد الذي لا يشف ولا يمكن القارئ من التقاط المقاصد ولو جُهد في تلمسها؟ ويزيد من أسفي أنني لم أظفر في دراسة الصديق كامل يوسف حسين - التي عنوانها بـ «ميسون صقر تحكي عن اللؤلؤ والمحار والردي، ابنة التاريخ تتحصن بقلاع الفن» - لم أظفر في هذه الدراسة بما يُثير لي الطريق إلى فهم نصوص الصديقة ميسون... فرحمة بنا أيّتها المبدعات! بقيت «نصوص» ظلية خميس التي هي تأملات لا تخلو من شاعرية وإن لم تكن شعراً.

أما القصص المنشورة في الملف، فيخيل إلي أنها ضربت بحظ أوفر من الجودة والنضج. وأن القصة القصيرة في الإمارات بدأت بالتالي تحتل مكانها في موكب الأدب القصصي العربي. وسأقف هنا وقفة خاصة عند قصتين رائعتين ضمّهما الملف، هما قصة «نسمة هواء طائشة» لعبد الحميد أحمد، و«سحابة صيف» لمحمد المر. فالقصة الأولى بارعة في تصويرها لأشواق رجل جائع تحمل إليه نسمة هواء طائشة رائحة لحم مشوي لم ياكل مثله منذ سنوات. حين يقصد الجزار يخطئ الواقع المزري بأحلام مهلوسة يعيشها الرجل فيخيل إليه أنه يشتري اللحم، ولكنه يكتشف أن المبلغ الضئيل الذي يحمله قد سرق منه. بيد أن الخيال ظل يلج عليه ويوهمه أنه يشتري اللحم ويعود به إلى بيته وأولاده وزوجته الذين يعيشون حدثاً لم يحدث إلا في خيال الرجل وهو واقف أمام الجزار الذي ينقلب إلى جزار للبشر، فيقطع الرجل كما يقطع خروفاً أو بقرة ويضع اللحم المتناثر في واجهة المحل، ويلقي بأحشاء الرجل ورأسه في صندوق القاذورات ويعود إلى الواجهة «ينتظر زبوناً جديداً»، في اللحظة التي خرج فيها من الصندوق صرصوراً أسود، ليس هو إلا الرجل الذي مُسَخ حشرة... وفي هذا رمز لانحدار قيمة الإنسان المحروم من لقمة الخبز والذي يتحوّل على أيدي الجزارين من البشر المتخمين إلى حيوان ممسوخ!

وأما قصة «سحابة صيف» لمحمد المر فتدل على قصاص قدير في السرد التلقائي البعيد عن التصنع وهو يصور فصلاً من فصول التفاح والكذب على النفس ممثلاً أم وضعت مولودها بغيا بزوجها، وكانت حولها أمها وأختها تهاجمان الزوج وتلصقان به كل نقيصة وتختلقان الأراجيف عنه، بل تصرّح الزوجة أنها ستطرده إذا جاء، ولكنها حين يحضر تنقلب إلى الترحيب به معبرة عن شوقها الشديد إليه، ممثلة بذلك نموذج القلب الحرياني الدجال.

ونشير أخيراً، في مجال قصص الملف، إلى ما يتميز به محمد حسن الحربي من حاسة عميقة للتركيز، وبراعة في الحكمة القصصية. وقصته القصيرة التي عنوانها «اضطرب الرجل وهو يرفع جثة القطعة» ترمز إلى التناقض البشري في شخصية إنسان يبلغ غاية الألم وهو يرفع جثة قطعة مدهوسة ممدّاة من الشارع، ويدفنها بالقرب من منزله، ولا يتناول يومها - من شدة حزنه - طعام الغداء مع عائلته كالمعتاد. ويفعل الشيء نفسه يوم يموت العصفور داخل قفصه فيأخذُه إلى

الطبيب طالباً تشريح جثته للتأكد من سبب موته المُحزن... ومن رفته كان يبكي أثناء نومه في الليل، ولوداعته كان أطفال الحي يتحلّقون حوله، يشكون إليه سوء معاملة آبائهم وأمهاتهم لهم، فكان يزورهم في بيوتهم ليقرّعهم بشدة، وكانوا يتقبلون منه هذا السلوك الإنساني بابتسامة، ويعتذرون له بصدق حميمي. وخاتمة القصة تحمل المفاجأة بكلمات قليلة، بسيطة، خالية من أي تعليق: «بيدا سعيد عمله بعد منتصف الليل وينتهي في ساعات الفجر الأولى، ويعود إلى منزله منهكاً. كانت مهمته زيارة البيوت الآمنة، يسحب شبابها إلى غرف التعذيب حتى الموت!».

لا يعلق محمد حسن الحربي بشيء، ولكنه يوحي لنا بصورة أخرى عن الدكتور جيكل ومستر هايد...

بقيت الدراسات والبحوث التي انطوى عليها الملف، وهي تتناول بالتاريخ والتقييم بعض الإنتاج الإماراتي في ميدان الشعر والقصة. ولنا عليها الملاحظات التالية:

أولاً: أنها قليلة نسبياً، وكنا نتمنى منها المزيد. ثانياً: أنها بمعظمها مكتوبة بقلم غير إماراتي، وبهذا حرماننا من معرفة المستوى الأدبي للنقاد والدارسين المحليين. ثالثاً: كانت دراسة عبد الإله عبد القادر، الذي أعد الملف، دراسة بانورامية شاملة تناولت الشعر والقصة والرواية والمسرح، ولكنها لم تتطرق إلى النقد. أكون الإنتاج الإماراتي خالياً من النقد والدارسين؟ رابعاً: كنا نتمنى أن يضمّ الملف بعض نماذج الشعر النبطي الذي يبدو أن له تاريخاً ومريدين.

وقد تحدث رمضان بسطاويسي محمد عن محمد أحمد السويدي بصدد ديوانه أساور في ذراع القمر، وكنا نود لو نشرنا في الملف بعض إنتاجه باللغة المحلية، وقد قرأت له بعض إنتاجه فيها، وخرجت بأن اللغة المحلية تتطور تطوراً كبيراً في اتجاه الفصحى، وأن قضية لقائهما هي قضية وقت أكثر مما هي قضية بنية. وقد استمعت حقاً بكثير من قصائد السويدي في أربعة دواوين له، ومنها أساور في ذراع القمر. وربما كان استمعاي بها عانداً إلى أنني قرأتها متغنياً كما أقرأ القصيدة الفصحى، مثل قصيدة «ثورة الأشواق» التي مطلعها «أغالب كُتْمَ أشواقِي وودّي وأحمل عن فراقِك فوق جهدي». ولا بد أن تكون هناك طريقة أخرى لقراءتها باللغة المحكية تقوم على تسكين أواخر الكلمات... ومع أن السكون جميل أحياناً وأنه مطلوب في أوقات معينة، فإن «تحريك السواكن» أكثر انطباقاً على هذا الرجل المميز بنشاطه وطموحه: محمد أحمد السويدي، القائم على واحد من أهم المجتمعات الثقافية في الوطن العربي!

خامساً: حرماننا في الملف من صوت شاعر إماراتي أحببناه هو حبيب الصايغ الذي وردتنا في الحقيقة بعض قصائده، ولكن سيق نشرها حال دون إثباتها، ونطالبه بتعويضها في أعداد قادمة من الأدب!

أيها الأصدقاء والصديقات من مبدعي الإمارات! إن مجله الأدب لسعيدة كل السعادة أن تكون صفحاتها في هذا الملف الخاص منبراً لأصوات الإماراتيين وأقلامهم ومواهبهم. ولتعذرونا إذا وجدتم في ما أسلفنا من آراء وأحكام بعض صراحة؛ فهذه ليست إلا اجتهادات كما ذكرنا سابقاً، باب تقييمها مفتوح على مصراعيه. وستظلّ الأدب، وهي اليوم في عامها السادس والأربعين، منبراً لكل المبدعين العرب، ونحن نعتقد أن الإمارات جديرة باحتلال مكان مرموق في إقامة صرح الثقافة العربية بتوجهها في الميدان القومي والإبداعي في أن.

الإمارات العربية المتحدة